

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هذه مجموعة منتخبات من الشعر الحديث في مصر بدءاً من " إمام " المجددين بون منازع ، " محمود سامي البارودي " الذي أعاد للقصيد العربي بهاء ورونقه وعنفوانه . واهباً له جماع قواه وفتوته ، حتى خلف منه أربعة مجلدات لا يستهان بها قبل أن يقضى سنة ١٩٠٤ .. بعد سنوات أربع من عودته من منفاه الإجبارى في سرنديب .

وانتهاء بأعلام التجديد حتى نزار قباني الشاعر المبدع الذى شغل الناس بسياسته وجنسياته اللتين برع فيهما أيما برع إلى حد " الإباحة " في الحالين .. وربما يمثل نزار الآن ضمير الأمة غير الجيِّ .

ومروراً بأعلام الرومانسية المصرية بدرجات تنوعها المختلفة .. وتآلقاتها وتفاهاتها أيضاً .

والوقوف أمام " نص " القصيدة الحديثة .. يشير عدة تساؤلات تبدأ " بالاختيار " وأسسها . الهدف الأول من اختيار النص في تصويرى هو مدى صدقه فى التعبير عن شاعرية قائله .. وبمعنى آخر فإن الاختيار " إنحياز " فى المقام الأول . لأنك تختار أفضل النصوص ، ومن ثم فانت " تجمل " صورة الشاعر بحسن اختيارك .. وتجميلها يظهرها على غير ما هى عليه فى الحقيقة .. فديوان العقاد تجد به " نفثة " جنباً إلى جنب مع " البيلا .. البيلا .. البيلا .. ما أحلى شرب البيلا " . وكلاهما وجه من أوجه شاعرية العقاد .. الصدق مع التفاهة .. فالتركيز على الأولى لن يقدم صورة الحقيقية للشاعر .

ونزار قباني شاعر حتى الثمالة ، حتى لظن أنك تستطيع فعل ما هو فاعله ..
وهو ليس كما يتصور البعض في خمرياته ومجالسه ونسائياته ، فأنا أراه أشبه بابن
أبي ربيعة الذي أنكر أن يكون سنوى شاعر يحسن التصوير دون تجربة حقيقية
معقولة .. وكانت قصيدة " بلقيس " هي شاهدي الأمثل على صحة هذا الإدعاء بما
تحويه من صدق الشعاعية والمشاعر تجاه الزوجة .

وقد يقف الإنسان طويلاً أمام " الديوان " يحاول التفتيش فيه عن شيء " يلفت
النظر " .. وعلى الرغم من أن في هذا ما يبدو " تزييفاً " للواقع ، إلا أنك لا يمكنك
ارغام المتلقين على قبول الغث من اختياراتك ولكن ما " يلفت النظر " قد لا يكون
معبراً عن معنى جميل ، ولكن قد يكون - في تصوري - لأنه يوضح نظرية ماحول
الشاعر .

ولهذا فإن اختياراتي هنا .. كانت تهدف إلى عدة أمور :

أولها : محاولة اكتشاف جانب " الكلاسيكية " في شعر البارودي والتي لا
تعنى " التقليد " وهو ما شاع خطأ في الدراسات النقدية .. فالأول ليس لها مقابل
عربي لأنها تشتق من *Class* وتعنى " الفصل " وتعنى الطبقة ، وهي في الأدب
تعنى المعارف الأولى التي ظهرت في عصر التكوين ..

والكلاسيكي هو الذي يلتزم بالقواعد المدرسية للأدب بالتزامه بالعلوم العربية
جميعاً التزاماً محكماً دون محاولة للتجديد في فرع من فروعها . ولكن " التقليد "
فضلاً عن عدم وجوده ، وعدم امكانية ذلك ، حيث أن الانسان لا يستطيع التخلص
من سماته الشخصية ، فإنه لا يمكن أن يتم بين زمانين مختلفين وتجربتين مختلفتين
.. ومن هنا تبدو التسمية " التقليد " غير موضحة للمعنى المقصود علي الرغم من
تنوع استخدامها .

ثانياً : محاولة اكتشاف عناصر " التجديد فى إطار الكلاسيك " فى شعر شوقى ، والذي يبين من النص الذى اخترناه صياغات الجمل الجديدة وطرائف المعانى غير المسبوقه .

ثالثاً : محاولة اكتشاف فساد مزاعم العقاد حول شوقى والتي أوضحها فى كتابه " الديوان فى النقد والأدب " الذى اشترك فيه مع المازنى . ومن النص المختار نرى كيف تفرد البيت فى القصيدة وكيف أن الدعوة إلى موضوعية القصيدة ليست إلا بدعة يرفضها الشعر العربى برمتها .. فالشعر العربى " شعر البيت " الواحد وسيبقى كذلك . بدليل أن كل ماخرج من غير هذا كان من سقط المتاع .

رابعاً : أن كافة المحاولات الشعرية التالية اعتمدت على " النثرية " بصورة أوضح حتى أضحت سمة تميز أكثر الشعر الحديث والمعاصر .

أزمة الشعر / أزمة العصر:

لم يعد الشعر لغة العصر الحديث .. أو حتى واحداً من لغاته .. فلم يعد الأقدر على تبني عناصر الحوار القائم على كافة الأصعدة ، وعلى كافة المحاور . ولم يعد اللغة القادرة على تخطي حواجز الظاهر لتستطيع تبني فكر ماوراءه .. على المستويات الاجتماعية والثقافية والفكرية والاجتماعية .. حتى أننا لم نعد نسمع له صوتاً .. فقد خفت وتضاؤل .. وأخذ يفتش لنفسه عن ركن من بناثنا الثقافى يقنع بالقبوع فيه .. وقد فعل .

لم يعد الشعر هو الصوت الصارخ فى البرية .. ربما تحقيقاً أيضاً لفكرة أعتد بها وهى أن الشعر صنو للرومانسية ، ونحن لا نعيش صيغة رومانسية واحدة .. ولأن القصص والمسرح كانا أنسب الصيغ القولية للواقعية ، فقد إزدهرا أيضاً كتلبية لحاجة إعلام جديد تزدهر فيه الخطابية والزعيق لا الهمس . والشعر : وربما يكون فى هذا التفسير الذى يوضح الظاهرة .

ولأننا لسنا في عصر الشعر .. فنحن نحتاج إلى شاعر له قوة " نزار قباني " في أن يرغم متلقيه على الإصغاء ، والاستمتاع ، والتجاوب . والإرغام يأتي بقدر من الشعرية ، لا يتوفر كثيراً لغير نزار أو لمن يكتب لهم مثل سعاد الصباح .. كما تشير الشائعة القوية .

ولأننا لسنا في عصر الشعر .. ضاعت لغة الشعر . وافتقدنا كثيراً صيفاً تبقى في الذاكرة لا تضع . ومفردات تختص بشاعر ما وتميزه ، ومعاني لا تجدها في معاصريه أو سابقيه .. ولهذا افتقدنا الشعر .

في لقاء مع أستاذي د. شكري عياد .. بعد جلسة شعرية في " مرید " بغداد في العام الماضي .. طرحت سؤالاً .. أين شعر مصر ..؟ صمت طويلاً مفكراً .. ثم قال : عندك محمد التهامي !! . وقتها أحسست بالفعل أنني لم أكن مخطئاً في ظني .. إن الشعر في أزمة .

ولقد سمعت شعراً كثيراً من شباب وكبار . وأشهد أن شيئاً منه لم يبق في الذاكرة .. وأشهد أن العيب ليس في المتلقين .. بدليل جمهور " نزار " عندما يحضر " لمعرض الكتاب " في القاهرة .. أو " لمريد " بغداد .

درس النص الشعري :

كيف ندرس الشعر ؟ سؤال يطرح نفسه كثيراً بين كثير يطرح من أسئلة إجابتها تحتاج إلى وعي بمتغير العصر الثقافي ، ومتغير البنية الفكرية واللغوية بعامة .

درس الشعر يستعير في مصر بعض الموروث وبعض الحديث .. أو هكذا يجب أن يكون .. في تصوري على الأقل . فمن الموروث : اكتشاف بنائية النص ..

وإنضباطه . والكشف عن جماليات الاستخدامات البلاغية واللغوية والدلالية .. بل يمكن التماهى في محاولة اكتشاف علاقات التناغم بين المفردات وحروفها .. وبين عناصر التكوين العروضي والموسيقى .. وهى صيغ تتخلل فى التركيبة الثقافية للشاعر .. تفضح مدى قرابه أو بعده عن التراث . والقرب أجدى .

ومن الحديث : محاولة اكتشاف علاقات البناء النفسى والتشكيلى للنص .. أو إخضاعه لمناهج فى التفسير المعتمد على مداخل تاريخية أو سياسية أو نفسية ، أو أيديولوجية من أى نوع كان .. حتى وإن كانت الأيديولوجية إسلامية .

وسوف يضيع من الحديث الكثير .. كما ضاع من الموروث الكثير .

ولكن سيبقى دائماً أن النص الشاعر نص أدبى فى المقام الأول يعتمد على مفرد لغوى يجب أن يكون فصيحاً . بالمعنى التراثى " للفصاحة " وليست بما شاع عن المفرد الآن من أنه فى مقابل " العامى " .

ودرس الشعر العربى لابد وأن يعتمد قدرأ من " الحرية " و " التجريد " ، بحيث يصبح الرأى هو الرأى ، والناقد فى حل من الإلتزام بأراء سابقة لايراهها مفيدة ، وأن يستخدم مناهج حديثة بدلاً من اجترار مناهج ظلت " تضحل " حتى عادت بنا القهقرى " مائة من العزلة " .. ونحن نتصور أننا الفرسان وحدنا فى الميدان لا نرى سوى محاولتنا التى لا يقنع بها أحد .. ولا تضيف خطوة إلى الأمام بل خطوات إلى الوراء .. نجتز " مشاكل السرقات " وتعيد طرحها اليوم بعد طرحها أول مرة منذ ألف عام ..

" الحرية " و " التجريد " هما اللذان سيعينان على الوقوف عند أخطاء شوقى ، نون " وجل " والوقوف على أخطاء " نقاد " سبقوا يهاجمون كل رأى جديد مخالف ، ظلنا منهم أن الهجوم وحده سوف يصنع المجد .

و درس الشعر الحديث ينبع من قناعة " الناقد " الداخلية بالنص .. ولا يعينى كثيراً أن أكون مواكباً لحركة الابداع .. فقد لا يكون هناك " إبداع " على مستوى " النقد " .. ولا يعينى كثيراً أن أخرج على أسوار الجامعة تحت أسماء كثيرة مثل " خدمة البيئة " .. ذلك أن البيئة لا يخدمها أستاذ متخصص يخاطب العامة من المثقفين ، ولكن دوره يقتصر على مخاطبة " الخاصة " وعلى هذه الخاصة أن "توصل" من المعارف ماتشاء لخدمة البيئة .. فالبيئة الثقافية لن تخدم جيداً إلا إذا رجع الأساتذة إلى قاعاتهم ومعاملهم وتركوا الإعلام للمطربين والمغنين وطلابي الشهرة الزائفة .. ولقد كان هذا من آراء طه حسين المراد في الندوة التلفزيونية الوحيدة التي عقدت معه في " رامتان " .

و درس الشعر الحديث يعترف بأنه " حديث " .. والحادثة هنا تعتمد على محاور زمانية ، ومحاور مكانية .. فالمكان الواحد قد اختلف باختلاف الزمان .. فقاهرة نهاية القرن العشرين ليست هي قاهرة بدايته .. ومن ثم فإن شعرها الآن يختلف عن شعرها السابق .. مسافة ما بين أمل دنقل والبارودي . وهذا بالضبط ما أعنيه بالحادثة التي قدمت خطأ بشكل مزر بما جعلها صنواً " للإلحاد " ..

و " حادثة النص " تصاحب كل " نص " إبداعى منذ قديم .. ويكفى أن نقول إن " الحديث " و " الموروث " يلتقيان في شجرة واحدة التقاء الفرع بالجذع .. لا يستطيع أحدهما أن يزعم استقلاله عن الآخر .. أو إمكانية استغنائه عن الآخر .. فلأنصار الموروث أقول إن الجذع في حاجة إلى فروع .. ولأنصار الحديث أقول إذا أنكرتم صلتكم بالجذع فأعيديوا عليه لغته ونحوه وصرفه وعروضه ومعجمه وبلاغته وميثولوجاه فهي من الموروث واصطنعوا لكم غيرها .. إن قدرتم .

الحديث موصول إذن رغم مزاعم الرافضين ..

والموروث موصول إذن رغم إدعاء المدعين .:

وكلاهما يدخل في تركيبة البنية الثقافية والفكرية المعاصرة .. المكونة

"لايديولوجية الخطاب الأدبي المعاصر " ..

تد. حلمي بدير